الإخلاص

د. محمد توفيق رمضان البوطي

أما بعد فيا أيها المسلمون، يقول ربنا تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ و روى البخاري وأصحاب السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

أيها المسلمون؛ كنت قد أشرت في الأسبوع الماضي إلى أننا بحاجة إلى ثلاثة أمور لتجاوز المأساة أو الحالة المؤلمة التي نعاني منها، والتي طال أمدها، وتركت في مجتمعنا وفي بلادنا أسوأ الآثار. وذكرت منها الإخلاص والفقه في الدين والوعي، واليوم أرجو أن أوفق لعرض معنى الإخلاص.

ذكر العلماء في معنى الإخلاص، قالوا: (أن يقصد بعمله ونشاطاته وجه الله ﷻ، ويبتغي رضاه والقبول لديه) أي لا يقصد بذلك كسباً مادياً ولا مكانة اجتماعية ولا ثناء من أحد من الناس. يقول ربنا ﷻ في كتابه الكريم في هذا المعنى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ وقالوا في معنى الإخلاص أيضاً: (تخليص العمل من كل الشوائب) أي من كل ما يمكن أن يخالط قصد وجه الله ﷷ من مقاصد ومصالح دنيوية أو نحوها، وقالوا في معنى الإخلاص: (الإخلاص: نسيان الخلق بدوام النظر إلى الخالق) عندما يكون توجهك إلى الله وحده منصرفاً عما سواه فأنت مخلص، ومتى خالط قصدك رغبة في ثناء من أحد أو مصلحة دنيوية تنالها من أحد فأنت في ذلك غير مخلص.

وأهمية الإخلاص تكمن في أمرين اثنين، الأمر الأول أن الله ﷻ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، فمتى أراد غير الله بعمله قال له الله ﷷ: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك» أي خذ أجرك ممن توجهت بعملك إليه، أما أنا فلا أقبل منك إلا ما كان خالصاً لي: أي لله جلَّ شأنه، والأمر الآخر الذي يدل على مدى أهمية الإخلاص أن أعمالنا وجهودنا وجهادنا ونشاطاتنا لن تبلغ مقاصدها ولن توفق في الوصول إلى أهدافها إلا بمقدار ما يكون الإخلاص رائداً لنا فيها. ذلك أن إمكاناتنا المادية

مهما بلغت وقدراتنا ومواهبنا مهما كانت تبقى ضعيفة قاصرة عن الوصول إلى أهدافها بالنظر إلى أهل الدنيا وما يملكونه. ولكن عندما يكون العمل خالصاً لوجه الله فإن الله يوفق لك مسعاك؛ وإن كانت الجهود فيه قليلة. فالقليل في ميزان الإخلاص يصبح كثيراً.

والإخلاص يحول العادة إلى عبادة. عندما يكون لك قصد في أعمالك؛ تبتغي بها وجه الله بشكل مباشر أو غير مباشر، وأوضح ذلك من خلال مثال؛ أنت تأوي إلى فراشك، تقصد بذلك أن تنال قسطاً من الراحة يعينك على صلاة الفجر، أو يعينك على قيام الليل، ويعينك على أداء مسؤولياتك التي كلفك الله ﷻ بها، فتنام والملائكة مشغولة بكتابة أجر نومك، أجل أجر نومك! وتأكل وتطعم طيب الطعام وتهنأ بنعم الله التي أكرمك الله ﷻ بها، فإن كنت تأكل للتقوي على طاعة الله، وكنت مستذكراً ومستحضراً أن هذه نعمة أكرمك الله بها، انقلبت متعتك تلك إلى طاعة وعبادة؛ تهنأ بطعامك وتنعم بلذيذه، ويكتب لك أجر تمتعك بهذا الطعام. وعندما تكون غافلاً تنقلب العبادة إلى عادة؛ فلا تنال عليها الأجر الذي تبتغيه. عندما تكون كلمة (الحمد لله) كلمة على اللسان لا ترتبط بمعناها وبمعنى الشكر لله ﷻ تفقد معناها، ومن ثم فإن الأجر لا يمكن أن يترتب على شيء لم تقصده. وكذلك الصلاة، إذا كنت تصلي لأننا اعتدنا أن نخرج إلى الصلاة، تمارس عادة فيها نوع من الرياضة، فيها نوع من النشاط الاجتماعي لن تنال الأجر على ذلك، تنال الأجر عندما تقول إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. عندما يكون هذا المعنى واضحاً في أذهاننا ندرك مدى خطورة المقاصد الأخرى في عمل يبدو من مظهره أنه عبادة، ولكن المقصد الذي يتطلع إليه صاحبه إنما هو مقصد دنيء، يريد الوصول إلى كرسي الحكم، يريد أن يكوّن لنفسه شعبية، يريد أن ينال مركزاً اجتماعياً، يريد أن يحقق مكاسب مادية، قد يتحقق له ما يريد و لكنه يخسر أمرين، عندما يقف أمام الله ﷻ ويقول له: وقفت تتظاهر بالصلاة وأنت إنما تبتغي بذلك مكانة في قلوب الناس! فيطرد من بين يدي الله ﷻ، وبدلاً من أن ينال الأجر ينال السخط، وعندما يدعي أنه يجاهد في سبيل الله وهو إنما يبتغي وصولاً إلى مكاسب مادية، والتذرع بذلك إلى تحقيق أحقاد شخصية، أو مطامع اجتماعية أو غير ذلك ستجد أن عمله يصطدم بجدار الفشل، ولن ينال مقاصده لأن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم. والأمر مرتبط بشيء آخر وهو الجانب الأهم؛ وهو أن هذا الإنسان هل هو مؤمن بالله؟ لأن الإخلاص لله

نتيجة لإيمانه بالله وإيمانه بالوقوف بين يدي الله، إيمانه بأنه غداً سيقف بين يدي الله ﷻ يوم تبدو السريرة علانية ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾. أنت تستطيع أن تخدعني وتستطيع أن تخدع الآخرين، ولكن لن تستطيع أن تخدع رب السموات والأرض علام الغيوب، لن تستطيع أن تخدع الله ﷻ. وعندما يكون العمل لغير الله تجد نتن سوء النية في ذلك العمل. عندما يدعون أنهم يجاهدون في سبيل الله، ومن أجل ذلك يستعينون بأعداء الله، ويتذرعون للجهاد المزعوم بالتعامل مع أعداء الوطن وأعداء الدين وأعداء الله. انظروا إليهم يدّعون الجهاد في سبيل الله ويتعاملون مع العدو الصهيوني، أيمكن لهذا أن يتحقق له هدف! أم أنه سيوطأ بالنعال في الدنيا، وينال أشد العذاب في الآخرة؟ عندما يدعي أنه يريد أن ينشر الحق والخير والاصلاح، ثم يستعين من أجل الحق والخير والاصلاح بالدول الغربية المتآمرة على بلده، والتي تذل بلدنا وتسومها ألواناً من الظلم والبغي والعدوان، أيمكن أن يتحقق له هدفه؟! سيتحقق له الذل والهوان والهزيمة وسخط الله ﷻ.

قضية الإخلاص لله ﷻ يميزها أمران اثنان؛ قبلها وبعدها، قد يخيل إلي أنه مخلص لله لكن الإخلاص لله ﷻمتوقف على أن يكون في قلبه إيمان يدفعه إلى ذلك الإخلاص، وثقة بالله لا بغيره، وتوكل على الله لا على غيره والتجاء إلى الله لا إلى غيره. الأمر الآخر أن يكون لديه من القاعدة العلمية والفقهية ما يصحح به عمله ويضبط به تصرفاته في ميزان الشرع لا في ميزان الهوى. أما عندما يكون الهوى رائداً له فلابد أن يخيل إليه الخطأ صوابا، والمعصية طاعة والإفساد إصلاحاً، أجل يخيل إليه ذلك كله.

دعونا ننظر إلى مظاهر الإخلاص من خلال قدوتنا ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ تعالوا نتأمل الإخلاص في شخصه ﷺ؛ أول مظهر من مظاهر الإخلاص في شخصه أن قلبه لم ينطوِ على غلٍ ولا على حقد. كان يرجو لقومه الهداية والنجاة، يرجو لقومه ويتألم لأن قومه يسيرون بأقدامهم إلى هاوية النهار، ولقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ وفي قوله تعالى:﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ كم كان يتألم لأن قومه عندما لا يستجيبون لدعوته ويصرون ويستكبرون ويصمون آذانهم عن الأدلة والبراهين التي يعرضها لهم كان يتألم لأنهم بذلك يشقون أنفسهم ويهلكون أنفسهم، ولذلك أظهر ربنا تبارك وتعالى هذه المعاني السامية في

شخص رسول الله ﷺ عندما قال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ يتجلى ذلك من خلال كلمته العظيمة التي قالها يوم حرب الطائف، ثقيف أذاقت النبي ﷺ أشد الأيام مرارة في حياته الدعوية، يوم اتجه اليه فطردته واتبعته بسفائها يشتمونه ويرمونه بالحجارة، ويوم جاء إليها فاتحاً فتحالفت مع هوازن، وشنت حرباً على النبي ﷺ في حنين وكادت الحرب تعصف بالأمة كلها وبالدعوة كلها، لولا أن هذه الدعوة تولاها الله ﷻ. فجعل كيدهم في نحورهم، فحاصر ثقيفاً في الطائف، والمسلمون قد انتصروا، فكيف يعودون من الطائف غير منتصرين؟ الطائف موقعها حصينٌ منيع ليس من السهل أن تقتحمها؛ لأنها في مرتفع شاهق؛ ولأنها لو أنهم لم يستعملوا إلا الحجارة لكفى في تحصينها وحمايتها - بالنسبة لوسائل الحرب في ذلك الوقت- صبر المسلمون على حصار الطائف أياماً أراد النبي ﷺ أن يرجع، فقالوا بل ننتظر؛ كيف نعود ولم ننتصر بعد؟ فبقوا أياماً حتى سقط منهم عدد من الشهداء، فتألموا وطلبوا من النبي ﷺ أن يعود، ولكنهم كانوا في غاية الأسى؛ لأنهم لم ينتصروا، فقالوا يا رسول الله ادع على ثقيف، فرفع النبي ﷺ يديه -إذاً إذا دعا نبيٌّ على قوم لابد أنهم هالكون- فبما دعا عليهم؟ قال: اللهم اهدِ ثقيفاً و ائت بهم، هذا موقف رسول الله. يعني أنه يقول: اللهم أدخلهم الجنة اللهم أسعدهم لأن نتيجة الهداية النجاة، لم يحقد عليهم لم يتأجج صدره حنقاً وغيظاً عليهم، لم يحرقهم ولم يغرقهم لم يذبحهم ولم يبددهم، ولا قال يا رب أهلكهم بددا وإنما قال: اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم، واستجاب الله له وكان من ثقيف خيرة قادة الجيوش الإسلامية فيما بعد. هذا هو الإخلاص الذي يذيب معاني الحقد في ضرام معاني الإخلاص ﷻ.

من مظاهر إخلاص النبي ﷺ أنه عُرضت عليه الدنيا، عُرض عليه الملك، المناصب التي باع كثيرون من أبناء قومنا اليوم دينهم ووطنهم على أوهام الوصول إليها- عرضوا عليه المال الذي يسيل لعاب الكثير من أبناء عصرنا اليوم لبلوغه وتحصيله ولو على حساب دينهم وكرامتهم ودينهم أو وطنهم، عرضوا عليه مشتهيات النفس كلها فماذا قال؟ قال: ما جئتكم فيما جئتكم به أبتغي الملك عليكم ولا المال منكم إنما أرسلني الله بأمر فإن قبلتموه فهو حظي وحظكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتموه صبرت حتى يفصل الله بيني وبينكم. هذه هي الدعوة، وهذا هو القصد لم يكن يبتغي منصباً ولا ملكاً ولا زعامة ولا مالاً، إنما كان يبتغي وجه الله ﷻ، وتأدية الرسالة التي ائتمنه الله تعالى عليها. ومن مظاهر هذا المعنى

سلوكياً في حياته الشخصية مباشر دخل عليه عمر رضي الله عنه فوجده مستلقياً على حصير وهو الذي تهتز لذكره عروش كسرى وقيصر، وهو الذي راودته الجبال الشم من ذهب، فأراها أيما شمم، أثّر الحصير في جنبه فقال له عمر رضي الله عنه يا رسول الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا، فقال: «مال وللدنيا ومال لدنيا ومالي، والذي نفسي بيده ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها» وهذا واقع، كلنا ماض سيترك قصره وعشه وخيمته والمال الذي جمعه أو حرم منه. أجل هذا هو منطق رسول الله ﷺ وهذا هو شأن عامة الصحابة ويطول الحديث لو أني استعرضت ذلك، ولكن أذكر مثالاً واحد فقط، عندما جيء بكنوز كسرى حملت من المدائن إلى المدينة المنورة، وكلها مجوهرات نادرة ثمينة جداً. وصلت دون أن ينتقص منها درهم، ولو أن أحد من الصحابة الذين حملوا هذه الكنوز سولت له نفسه لاستطاع أن يصل إلى ما يبتغي، عندما رأى عمر رضي الله عنه كنوز كسرى قد وصلت بتلك الأمانة قال: إن قوماً أدوا هذا لأمناء. يومها قال له أحد الصحابة: (عففت فعف الناس، ولو رتعت لرتعوا) إلا أنها تربية غرسها النبي ﷺ في قلوبهم، وتأصلت بالإيمان في قلوبهم وصدورهم.

ما السبيل إلى تحقيق الإخلاص؟ لابد أولاً من ايمان راسخ في قلوبنا، ثم نبني على قاعدة ذلك الإيمان كثرة ذكر الله عزّ وجل ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وفي آية أخرى يقول: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ كثرة الدعاء والاستغفار والالتجاء إلى الله. والاستغفار دائما نعود إلى أنفسنا فنحاسبها، ونستذكر اللحظة التي نقف فيها بين يد الله عز وجل وقد تكشفت أمورنا بين يديه ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أن نستذكر ذلك الموقف بين يدي الله ونحاسب أنفسنا على ما مضى ونعزم على استقامة ما يأتي، تذكر الموت والموقف بين يدي الله عز وجل قيام الليل والاستغفار بالأسحار، تلاوة القرآن بالتدبر، مجالسة الصالحين من عباد الله، والبعد عن مجالسة أهل الهوى والغفلة .

أسأل الله أن يرزقنا الإخلاص ويسلك بنا سبله. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم فيا فوز المستغفرين

خطبة الجمعة 2016/09/23